الحرف والصناعات في مصر
في عهد محمد علي وأثرها في الحياة الاجتماعية

دكتور: أحمد أمين جمعة الشربتلي
عضو هيئة التدريس
بالمعهد العالي للسياحة والفنادق بالعريش

مقدمة:

تعد الحرف والصناعات في تاريخ مصر الحديث منظومة من المهارات التي شكلت متغيرات متعددة في عمليات الإنتاج الحرفي وفنونه التي تمثل مرحلة من المراحل التاريخية التي تعبر عن فنون هذه الصناعات، والتي ارتبطت بنظام اجتماعي يتمثل في الطوائف التي تجمعت شتات هذه الحرف في نظام يقوم على التلاحم والتكافل والتدريب داخل بناء هذه الطوائف. ولقد ظلت هذه الأبنية تحافظ على تقاليد الحرف وعلى مهارات أبنائها، وهي في كل الأحوال تدعم احتياجات المجتمع من صناعات وخدمات، وقد ازدهرت بشكل واسع في عهد محمد علي حينما وضع نظمًا لهذه الطوائف لتحديد أدوارها في البناء الاجتماعي الكلي للمجتمع المصري.

ومما لاشك فيه أن أصحاب هذه الحرف لعبوا دورًا اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا في البلاد، فكانت لهم مكانتهم، كما كان لكل حرفة قيمة تميزها عن الأخرى، كما أن الخدمات ارتبطت أيضًا بهذا النظام، الذي يمثل تكاملاً مع النظام الحرفي الصناعي.

وكان للإسلام دور واضح في رفع مكانة العمل والعمال والصُّنَّاع بوجه عام، فالعمل لا يزال هو ميزان تقدم الأمة، والمهارة في إتقانه هي مقياس

الحضارة، والوفاء بالعمل هو الهدف الذي يسعى إليه الإصلاح الاجتماعي. قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

وهذا البحث يحاول توضيح الصورة التاريخية والاجتماعية لهذه الفئات ولهذه الجماعات وأنواع الحرف التي جمعتهم في أنساق اجتماعية، ولهذا سيضع الباحث ملامحها في عدد من المحاور الأساسية. وقبل أن يبدأ في طرح تصوره سيبدأ أولاً بالنطاق الجغرافي لمصر بوضعها الجغرافي والتاريخي بين الدول العربية، ومكانتها بالنسبة للفترة العثمانية التي تمرد عليها محمد علي وأخرجها من نطاق الخلافة العثمانية، وجعل لها خصوصية بين الدول العربية التي كانت تحت الولاية العثمانية، والشيء الملاحظ أن مصر تكاد تكون هي الوحيدة بين الدول العربية التي حاول محمد علي السيطرة عليها بجانب خصوصيتها الجغرافية، كان لها خصوصية تاريخية في الصناعات الصغيرة والحرف التي تميزت بها في عمليات الإنتاج، ثم يتناول القضية المحورية التي تتعلق بنظام الطوائف الحرفية، وما يمارسونه من صناعات، كما يتناول عملية التنظيم بين الطوائف، وتحديد العلاقة بين الصوفية والحرفيين، ثم أهم ملامح الحرف في عهد محمد علي.

أولاً: منظور جغرافي تاريخي لمصر

مصر وأهميتها عالميًا كموقع هام:

تتميز مصر بموقعها الجغرافي الهام؛ إذ تقع عند مجمع قارتي آسيا وأفريقيا وعند مفرق بحرين داخليين يمتد أحدهما إلى المحيط الهندي ومناطقه الساحرة، ويمتد الآخر إلى المحيط الأطلسي ومناطقه الباردة، ولذلك كانت مصر ولا تزال أرض الزاوية التي تتجمع عندها مسالك الشرق والغرب[1]. وتعتبر مصر دولة أفريقية آسيوية، والجزء الأكبر من أراضيها يمتد في أفريقيا، وينظر إلى شبه

(١) محمد إبراهيم حسن: جغرافية مصر العربية وحوض البحر الأحمر، مركز الإسكندرية للكتاب، ١٩٩٨، ص٥.

جزيرة سيناء باعتبارها جزءًا من قارة آسيا، خصوصًا بعد حفر قناة السويس لتمثل مانعًا مائيًا بينها وبين بقية أراضي الدولة[1] .

وقد أصبحت مصر بموقعها الفريد الأفرو آسيوي والنيلي والبحر المتوسط ذات أهمية استراتيجية في ثلاث دوائر؛ أولاها: الدائرة العربية بحيث تعد همزة وصل بين مشرق العالم العربي ومغربه، ويساعدها في ذلك وزنها البشري والثقافي، كذلك تتمثل دائرتها الثانية في العالم الأفرو آسيوي إسلاميًا وغير إسلامي، أما الدائرة الثالثة فتمتد إلى القارة الأوربية شمالاً عبر البحر المتوسط[2].

أما علاقة مصر بالنسبة للدول المجاورة، فلا تتوقف عند مجرد ارتباط الأراضي بالبلدان المجاورة، وإنما تمتد لتشمل نفوذها الثقافي في العالم العربي كله من خلال التأثير الإعلامي، كما أن أهميتها قوية ودورها الديني مؤثر من خلال الأزهر الشريف في الدائرتين العربية والإسلامية.

محمد علي مؤسس مصر الحديثة:

يعد محمد علي[3] الرائد الذي انتقل بمصر من ظلام العصور الوسطى إلى نور العصر الحديث، وهو الذي أشعل بيده شرارة النور والعلم، فعمَّ ضياؤها أرجاء مصر والشرق العربي، وهو بهذا يقف على قدم المساواة مع مينا وخوفو

---

(١) محمد فريد فتحي: جغرافية مصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط٢، ٢٠٠٢م، ص٤ .

(٢) عيسى إبراهيم: جغرافية مصر، دار المعرف الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص٢٣ .

(٣) ولد محمد علي في ٢١ من ذي الحجة ١١٨٢هـ (٢٧ من أبريل ١٧٦٩م)، وهو العام الذي ولد فيه نابليون بونابرت، وفي البلدة نفسها التي ولد فيها الإسكندر الأكبر، ويرجح أصل محمد علي إلى الجزء الألباني من مقدونيا، فهو من الأصل الألباني (جي فارجيت: محمد علي مؤسس مصر الحديثة، ترجمة محمد رفعت عواد، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣م، ص٢٥) .

وتُوفي محمد علي في شوال ١٢٦٥هـ (أغسطس ١٨٤٩م) عن عمر يناهز ٨٢عامًا، عمل والده إبراهيم أغا في تجارة التبغ، وهي الزراعة الأساسية في هذا الإقليم، كما كان يستأجر السفن للقيام بأعماله، وتُوفي والده مبكرًا وكفله عمه، وعندما وصل محمد علي إلى مصر كان عمر اثنين وثلاثين عامًا، وهو رجل قصير القامة، ذو ملامح دقيقة، قوي البنية، جذاب بنظراته ذات التأثير القوي، يتميز بمسلك واضح، وعلى قدر كبير من الطهارة والنظافة، كما يتميز بالبساطة في ملبسه بالبدلة التقليدية للعثمانيين، والعباءة المبطنة بالفرو والبنطلون المنتفخ، ويعلو رأسه العمامة الشهيرة الخاصة بعظماء العثمانيين . (المرجع السابق، ص٢٧) .

وتحتمس الثالث ورمسيس الثاني في مصر القديمة، وعمرو بن العاص وأحمد بن طولون والمعز لدين الله وصلاح الدين وبيبرس في مصر الإسلامية، أولئك الذين جعلوا مصر درة الشرق[١] وجعلت منهم حكامًا يشهد لهم التاريخ.

وكان مجيء محمد علي إلى مصر، وتوليه الحكم، وإعطاؤه مصر حكمًا ذاتيًا، تطورًا انتظرته مصر منذ قرون طويلة. وقد ساعد التدخل العسكري لنابليون بونابرت في مصر على إتاحة الفرصة لمجيء محمد علي إليها كقائد عسكري ضمن الحملة التي أرسلها العثمانيون، وتمكن بعدها من الاستيلاء على السلطة في مصر[٢].

وقد تولى محمد علي الولاية على مصر بإرادة الشعب المصري وزعمائه وطوائفه الدينية والوطنية الذين استعان بهم، والذين كانوا سندًا له في مواجهة الأزمات التي أحاطت به من جانب الإنجليز بعد جلائهم عن مصر، كما اعتمد محمد عليّ على زعماء الشعب المصري المتمسكين بتعاليم دينهم التي تحض على الجهاد في سبيل الله، وقد تمكن من تثبيت دعائم حكمه، وتذليل الصعوبات والعقبات التي واجهته[٣].

ثانيًا: الطوائف الحرفية

ضمت مصر مدنًا لها مكانتها وخاصة القاهرة والإسكندرية وطنطا وأسيوط، وكانت القاهرة - عاصمة ولاية مصر- تضم الجهاز الحاكم والإداري والمركزي المتميز المتمتع بكثير من المميزات، كما ضمت القاهرة الصناعات الحرفية المحدودة، وأيضًا ضمت في كبريات المدن الأخرى جماعات من التجار والملتزمين الذين كانوا أحسن حالاً من الفلاحين، وجماعات العلماء الذين عاشوا كذلك حياة أكثر سعادة من حياة أهل الريف[٤].

---

(١) جمال بدوي: محمد عليّ وأولاده: بناة مصر الحديثة، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٣٣.

(٢) جي فارجيت: محمد عليّ مؤسس مصر الحديثة، ترجمة: محمد رفعت عداد، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣م، ص٢٥.

(٣) جي فرجيب: المرجع السابق، ص ٢٥.

(٤) السابق: ص ١٣-١٤.

وهذه الوظائف لم يكن أصحابها يفكرون في الوصول إلى الحكم، ونعني بذلك رجال الدين وطوائف الحرف والتجار الملتزمين، وكان رجال الحرف يقيم كل طائفة في حي خاص بهم، ولكل طائفة شيخها الذي يعتبر مسئولاً عن أفراد طائفته وتطبيق العُرف المتبع بينهم، وكانت الطائفة ذات تقاليد محترمة، فهناك «المعلم» الذي يكون مسئولاً عن «العمال»، والصبية الذين يعملون معه في الدكان، وكان الترقي من «صبي» إلى «عامل» إلى «معلم» لا يتم عشوائيًا، وإنما بعد اختبار المقدرة الفنية حتى لا تنحدر الحرفة، وتقل جودة الإنتاج[1]. وغالبًا ما كان «العامل» يتزوج ابنة «المعلم»، وهكذا كانت العلاقات داخل الحرفة أبوية في العمل، وأيضًا في الحياة الاجتماعية، كما كان «للمعلم» دور في مشاركة «العمال» أفراحهم وفي كافة المناسبات الاجتماعية، وأيضًا مشاركتهم بالرعاية عند المرض أو الأحزان.

والحرفيون هم أهل الصناعة على مستوى ذلك العصر، وكانوا يقومون بأعمالهم في رتابة دون تدخل من جانب الحكومة، إلا فيما يتعلق بجمع ضرائب والإعانات. وقد عمل محمد عليّ على أن يكون الحرفي في خدمته وتحت توجيهه حينما قام بالسيطرة الكاملة على وسائل الإنتاج.

كما كان الحرفيون يقومون بأعمال صناعية لتغطية حاجات البلاد والمواد الغذائية والملابس والأدوات البسيطة ومتطلبات البناء والتأثيث، فضلاً عن بعض الصناعات الحديدية المحدودة، كما كان التطلع محدودًا لدى الحرفيين، حيث كانوا يتطلعون إلى سد الحاجة المحلية الاستهلاكية.

وأدت سياسة الاحتكار للحرف إلى هجر كثير من العاملين لحرفهم، كما حدث للفلاح- نتيجة سياسة الاحتكار- من تركه لأرضه؛ بحثًا عن عمل غير الفلاحة[2].

---

(١) عبد العزيز نوار سليمان: تاريخ مصر الاجتماعي منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، ب.ت، ص ١٥٥.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٥٦.

لقد لجأ الحرفيون والصنّاع إلى أعمالهم الحرفية وطوائفهم التي ازدهرت على مر السنين[١] ، حيث كانت الوظائف في عهد محمد عليّ تأخذ شكل هبات أو منح، تعطي من الباشا مثل الأراضي تمامًا، وتجري لها رواتب وتستبدل بمعاشات أو إحسانات ولي الأمر «ولي النِّعم» في حالة العجز عن القيام بالعمل، وكانت نظرة محمد عليّ إلى موظفيه نظرة استعلاء، فهم عبيده وعبيد إحسانه؛ باعتبارهم طائفة من رعيته[٢] . وكان من مساوئ الإدارة والوظائف في القرن التاسع عشر أن شاعت الرشوة في تولي المناصب، وفي عصر محمد عليّ كانت الوظائف مؤقتة، بالإضافة إلى عدم الاستقرار والتنقل من وظيفة إلى أخرى بسرعة، كل ذلك أدى إلى شيوع قيم الانتهازية والرغبة في أن تكون الوظيفة بأي وسيلة مصدرًا للثراء[٣] .

١ – نشأة نظام الطوائف:

يعدُّ هذا النظام بمثابة تكوين اجتماعي له أهمية كبرى في الصناعة خلال العصور الوسطى الإسلامية، ذلك أن وسائل الإنتاج على وجه العموم ترجع إلى مجتمعات الطوائف وعمالها الذين يديرونها، فكان الأفراد الذين تجمعهم مهنة واحدة أو عمل واحد، أو حتى اتجاه ديني واحد ينظمون أنفسهم في شكل طوائف لرعاية مصالحهم الذاتية.

وقد نشأ هذا النظام في مصر في العصر الروماني أو قبل ذلك، ويرجح بعض الباحثين أن الطوائف كانت حصيلة بعض الحركات الثورية في المجتمع الإسلامي، وعُني هؤلاء بإبراز أوجه الشبه بين مراتب الصناعة داخل الطائفة وبين مراتب الصوفية، حيث قاموا بتحليل مظاهر الاحتفالات التي تُقام بمناسبة إلحاق الصبيان، وربطها ببعض طقوس الصوفية واحتفالاتهم[٤] .

---

(١) حسن خلاف: التجديد في الاقتصاد المصري الحديث، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٢م، ط١، ص١٨١ .

(٢) حلمي أحمد شلبي: الموظفون في مصر في عهد محمد علي، ص ٣٥ – ٣٦ .

(٣) إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا، جـ١، دار الكتب المصرية، ١٩٢٣م، ص١٧١ .

(٤) مصطفى بركات: الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٣٤٧ .

ويرجع ظهور هذه الطوائف في الدولة الإسلامية إلى بدايات القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، وقد حافظت هذه التنظيمات على نظامها الذي أخذ صفة الثبات والاستقرار منذ عصر المماليك[1] . والواقع أن الطوائف كانت موجودة في العالم الإسلامي قبل تأسيس الإمبراطورية العثمانية، وفي عهدها تطورت من جماعة «الفتوة» التي كان يمثلها أهل الأناضول، ذلك أن هيأت الطوائف العثمانية شأنها في ذلك شأن الدراويش، كانت لها في البداية طريقًا لا تختلف عن طريقة هذه الجمعية، وأيضًا كان لكل نقابة راع أو ولي، وأحيانًا راعيان، وكل هؤلاء كانوا شخصيات دينية، ذوات طابع ديني متميز[2] .

وكان يعتقد أن هؤلاء الذين اخترعوا الحرفة والتجارة التي تباشرها الطائفة المعنية، وحتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، كان كل صاحب حانوت من المسلمين يضع على تندته جملة تذكر اسم الولي الذي يتبعه[3] .

٢- شيخ الطائفة:

كان الحرفيون في المدن منتظمين في طوائف Guilds على شكل هرمي يرأس كل طائفة رئيس أو شيخ الطائفة أو الحرفة، وكان ينتخب من بين أعضاء الحرفة الأكفاء، ولكن يتم تعيينه من قبل الحكومة شكليًا، وهو يعد الحاكم أو حاكم الطائفة الوحيد، ويجمع وظائف رئيس وأمين صندوق وكاتب الحرفة[4] .

كما كان التنظيم في الأسرة وراثيًا إلى حد كبير لدرجة أن معظم الحرف المتخصصة اقتصرت على عائلة واحدة. فمثلاً كان طلاء الجدران بالألوان المذهبة

---

(١) أمين عز الدين: تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى عام ١٩١٩، ص٣١-٣٢ .

(٢) حسين عليوه: دراسة لبعض الصناع والفنانين بمصر في عهد المماليك، دورية كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد الأول، مايو ١٩٧٩م، ص٩٠ .

(٣) هاملتون جب، هارولد بوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة: أحمد مصطفى عبدالرحيم، مصطفى الحسيني، جـ١، دار المعارف، ١٩٧١، ص ١٢٣ .

(٤) راشد البراوي، محمد حمزة عليش وآخرون: التطور الاقتصادي في مصر في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٤٨م، ص١٨ .

مقصوراً على أسرة واحدة، ولهذا أطلق عليها أسرة الذهبي[1] ، وكان لهذا النظام فضل كبير في تطور نظام التخصص في الصناعة .

ويمثل هذا النظام الطائفي المهني عنصراً أساسيًا في الحياة المدنية بالنسبة للسلطات في إطار يمكنها من الإشراف على معظم الشعب العامل بالمدينة من صُنَّاع وتجار، وعندما كان يتوسط شيوخ الطوائف المهنية في المشاجرات التي تنشب بين أبناء طائفتهم، فإنهم كانوا يعاقبون المخطئ أو المسيء، وهم بذلك يسهمون في الإدارة المدنية وحفظ النظام، حيث كانت تجمع الغرامات بواسطة شيوخ هذه الطوائف[2] .

الهيئات المعاونة لشيخ الطائفة:

(أ) الأسطى: كان الأسطى (المُعَلِّم) يتمتع بدرجة كبيرة باحتكار ما يقوم به من عمل بمعاونة من حوله من العرفاء والصبية، كما أن دائرة احتكاره كانت محلية أكثر منها أهلية؛ إذ إن نظام الطوائف كان نظامًا محكمًا لا يدخل إليه إلا من خبره، فلكل طائفة صفات وخصائص معينة وراثية في أعضاء الطائفة وذريتهم، إذ كانت الحرفة تنتقل من الأب إلى الابن بحيث يبقى ابن الحداد حدادًا، والنجار نجارًا، وهكذا، وكانت نتيجة الحفاظ على أسرار الحرف وقصرها على أفرادها وأسرهم أن شاع تخصص بعض أسرات في حرفة واحدة يتوارثها الأبناء عن الآباء، فضلاً عن صعوبة دخول الغرباء عن الطائفة في صفوفها[3] .

(ب) العريف: وهو عامل أجير يعيش عند الأسطى (المُعَلِّم) الذي يتكفل بإيوائه وإطعامه، وعدد من يستخدمهم المعلم من العرفاء محدود لا يزيد عن واحد أو اثنين، وتتراوح مدة العريف بين ثلاث وخمس سنوات لا يجوز له أن

---

(١) إميل فهمي حنا شنودة: تاريخ التعليم الصناعي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٣٢ .

(٢) هاملتون جب: المجتمع الإسلامي والغرب، ص١٣٧ .

(٣) أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ترجمة: زهير الشايب، القاهرة، ١٨٧٤م ص١٥ .

يترك معلمه في أثنائها، وإن فعل لا يجد معلمًا آخر يقبله، كما لا يجوز للمعلم أن يطرد العريف قبل انقضاء مـدته بدون أسباب، وكان لابد للعريف إن أراد أن يرتقى ويكون معلمًا أن يصنع في مجال تخصصه الحـرفي عملاً متميزًا فنيًا، إلى جانب دفع رسوم الترقي إلى مرتبة «الأسطى»[1] .

(جـ) الصبي: عادة كان العمال تحت التمـرين أطفالاً بين سن الثامنة والعاشرة يتلحقون بخدمـة صاحب المهنة بموافقة ولي أمر الصبي، ويتعهـد صاحب الحرفة بتلقين الصـبي أسرار المهنة أو الحـرفة، والتكفل بغـذائه وإيوائه في منزله، وفي مقابل هذا يتعـهد الصبي بخدمة صاحب الحرفة بإخـلاص وطاعة أوامره، وبعد انتهاء مدة التمرين التي تتراوح ما بين خـمس واثنتي عشرة سنة يعقد له امتحان ليُرَقَّى إلى مـرتبة «العَرِّيف» وتعـتبر فتـرة الصبيـة (التلمذة) أهم فتـرات التعليم الصناعي على طريقة الطوائف[2] .

٣- أنشطة طوائف الحرف:

كان أعضاء الطائفة يزاولون حرفتهم على قدم المساواة ويرتبطون في نشاطهم بقواعد دقـيقة لا يحيـدون عنها. وفي مقابل ذلك يتـمتعون باحتكـار مزاولتهم لحرفتهم، كمـا كان يمتنع قيام أي تنافس بين أعضاء الطائفة، ونتـيجة لذلك كان على كل عضو أن يراعي مـواصفات السلعة المنتجة وسـعرها المحدد، ومكافآت الصبية والصُّـنَّاع الذين يعملون تحت إشرافه، والفن الإنتاجي المتفق عـليه، كما كان يحرم على أي عضو أن يقوم بأي نشاط إعلاني عن منتجاته.

ولقد كـان هدف التنظيم الطائفي أيضًا حمـاية المستهلكين، وذلك بتـحديد ثمن عال لـلسلعة المنتـجة يغطي أثمـان المواد الخام وتكاليف الإنتـاج الأخرى، ويحقـق عائدًا مناسبًـا للحرفي «الأسطـى» على أن تكون السلعة منتـجة وفـقًا لمواصفات محددة ودقيقة[3] .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٢، ص٣٦ .

(٢) رءوف عباس: الحركة العمالية في مصر ١٨٩٩-١٩٥٢، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٨، ص٢٤-٢٥ .

(٣) عاصم الدسوقي: التاريخ الاقتصادي، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٤ .

ومثلت هذه الطوائف رابطة إدراية أتاحت لها العمل بين السلطات المصرية في نهاية القرن التاسع عشر لتنشئ جهازًا إداريًا يحل محل هذه الطوائف، وكانت بعض الطوائف تصنف بحسب عقيدة أفرادها، فكان أفراد الحرفة الذين يعتنقون ديانة واحدة يكوِّنُون طائفة خاصة بهم[١] .

ولقد أدى وجود طوائف الحرف إلى التحكم المطلق والدقيق في الصناعات الحرفية المصرية والاقتصاد المصري، ومن وجهة نظر الأعضاء نجد أن الطوائف قد حافظت على مستوى الحرف فأوقفت المنافسة الخفية وخدمت أغراض مجتمع يقوم على تأمين أفراده وإقامة العلاقات بينهم[٢] .

والحرف التي كانت تضم الصناع والحرفيين والطوائف وحرفًا أخرى، منها طُهاة الأطعمة، وباعة الحلوى، وباعة الأسماك المملحة، والخمارون، ومنها حرف متدنية، وحرف مشينة وإجرامية تنظم بالطريقة نفسها، مثل: طوائف الشحاتين والنشالين واللصوص وسواهم من الأشرار، وعلى الرغم من عدم وجود رؤساء لهم أو شيوخ تعترف بهم السلطات، إلا أنهم كانوا يؤدون الضرائب للشرطة، يضاف إلى ذلك الراقصات، والرفاعية، والمهرجون، ولاعبو القمار، وغير ذلك، وكانت تجمع منهم الضرائب عن طريق أمين الخردة الذي يتولى الإشراف على الطوائف التابعه له[٣] .

ولم يقتصر دور الطوائف أو نشاطهم على إقامة الحرف ومزاولتها أو على جمع المال، أو الضرائب فحسب، بل شاركت في الأحداث السياسية والاجتماعية، فحين خرج الناس يستعدون لمعركة إمبابة في ١٤ صفر ١٢١٣هـ (٢٧ يوليو ١٧٩٨م)[٤] التحموا جميعًا يدًا واحدة، وأخذت كل طائفة من

---

(١) عاصم الدسوقي: التاريخ الاقتصادي، ص ٥٠-٥٣ .

(٢) صلاح أحمد هريدي: الحرف والصناعات في عهد محمد علي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ١٨-١٩ .

(٣) هاملتون جب، هارولد بوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ص١٢١-١٢٢ .

(٤) تسمى هذه المعركة بواقعة إمبابة أو معركة الأهرام، والتي دار القتال فيها بين الفرنسيين والمماليك، واشترك المصريون فيها بما لديهم من قوة واستعداد، رسا الأسطول المصري على ساحل إمبابة، وكان مؤلفًا من=

الطوائف تجمع الدراهم، ونصبوا الخيام، وأقاموا في المساجد، وجمعوا المال، ولم يبخل أحد منهم، بل قام بعضهم بتجهيز جماعة من المغاربة والشوام بالمؤن والسلاح[1] .

العلاقة بين الصوفيين والحرفيين:

في الواقع أننا نجد جانبًا كبيرًا من سكان المدينة في العصر العثماني قد انضموا إلى الطرق الصوفية وإلى الطوائف، وكان بعض شيوخ الطوائف يقيمون الزوايا ويتولون الإشراف عليها، كما أن طقوس الالتحاق بالطائفة شبيهة بطقوس الالتحاق بالطريقة، ولم يكن من الضروري أن يكون جميع أعضاء الطائفة منتمين إلى طريقة واحدة، بل كانت هناك طوائف لغير المسلمين، كما كانت تضم أناسًا من المسلمين، وكان هناك اختلاف بين النظامين، فالطائفة نظام إداري، له طابع اقتصادي، بينما الطريقة الصوفية تهدف إلى الإشباع الروحي، فهي ذات طابع ديني[2] ، ومعظم الناس ينتمون إلى النظامين.

وهنا نجد ترابطًا بين الحرفيين والصوفيين، وخاصة في الحركات الشعبية، ويتضح ذلك في العلاقة التي كانت بين الطريقة البيومية وطائفة الجزارين بحي الحسينية بالقاهرة، وبرز من الجزارين قادة الحركات الشعبية التي قامت بحي الحسينية في نهاية القرن الثامن عشر، وكانت طائفتهم هي النواة التي تتجمع حولها حركات التمرد، بل كانت هناك علاقات مصاهرة بين المشايخ والجزارين.

وقد أسهمت طوائف الحرف في إقامة الحفلات العامة والخاصة، وكانت كل طائفة تشترك في المواكب العامة تحمل نموذجًا من إنتاجها، وكان أبرز هذه

= السفن والمراكب الحربية، وانتهت بهزيمة المصريين بعد فرار المماليك وتركهم وجهًا لوجه أمام الفرنسيين (عبدالرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، وتطور نظام الحكم في مصر، ط٥، ١٩٨١، دار المعارف بمصر، ص٢٠٢-٢٠٥) .

(1) Stanford J. Shaw: The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt (1518-1798), 1958, p. 121 .

(٢) صلاح أحمد هريدي: الحرف والصناعات في عهد محمد علي، ص ٢٨ .

الاحتفالات موكب المحمل، والاحتفال برؤية هلال شهر رمضان، ووفاء النيل. وإذا نظرنا إلى تطور هذه الطوائف قد امتازت بتحديد أفراد الشعب الذين يمارسون حرفة بعينها، وهناك حرف كثيرة كانت النقابات التي حلت محل الطوائف بعد ذلك تحتفظ باحتكار تجارتها حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر[١] .

مزايا نظام الحرف ومساوئه:

لعلنا نجد أن من أهم مزايا هذا النظام أنه يوجد الترابط والإخاء والتعاون بين أعضاء المهنة الواحدة، ومنع المنافسة غير الشريفة بين الأفراد، وأيضًا دقة الصناعة وارتقاء الفن[٢] . وكانت الطائفة تخدم أغراض أفراد الشعب وتوفر لهم الوسيلة التي تمكن أقل هؤلاء الأفراد شأنًا من التعبير عن غرائزه الاجتماعية والاطمئنان إلى مكانته في النظام الاجتماعي.

ومن مزايا هذا النظام أيضًا أنه لا يقبل دخلاء على الحرفة أو الطائفة، بمعنى أن الفرد الذي ليس لديه أي خبرة سابقة، أو لم يكن له التدريب الخاص من قل الشيخ أو المعلم، فلا يكون له مكان وسط الطائفة المدربة والتي تنتج عملاً متقنًا[٣] . وإذا كان هذا النظام مقيدًا للحرية، لكنه مفيد لصالح الصناعات اليدوية؛ لأنها تتطلب نوعًا من المهارة أو الدقة.

وقد تحول نظام الحرف عن الغرض الذي أنشئ من أجله بسبب تدخل الأتراك العثمانيين، فبعد أن كان هذا النظام يعمل على الرقي بفنون الصناعة والمحافظة على مصالح الحرفيين، تحول إلى إدارة تتحكم في الصناع وإرادتهم، طبقًا لرغبات الحكومة ومتطلباتها[٤] . كما أن قيام الحكومة بوضع الطوائف تحت إشرافها المباشر، جعل عمل شيخ الطائفة الذي كان يتولى مهام الإشراف على

---

(١) أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ص٧ .

(٢) رءوف عباس حامد: الحركة العمالية في مصر ١٨٩٩ - ١٩٥٢م، ص ٢٧ .

(3) Baer: Social Change in Egypt, 1800-1914, p. 143 in: P. M. Hott, of Political and Social Change in Modern Egypt.

(٤) عبد المنعم نوزي: مذكرات في تطور مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث، ص ٢٣ .

ارتقاء الحرف والصناعة وجمع الأموال التي كانت تفرض عليهم بنوع من القسوة، جعل كثيرًا من طائفة الحرفيين والعمال المهرة يحجزون عن الدفع[1]، الأمر الذي ترتب عليه تركهم للحرف؛ مما تسبب في ضرر بالغ نتيجة انسحاب الصناع المهرة وتركهم العمل.

وكان لهذا الأثر السيء على الحرفيين المهرة، وأدى أيضًا إلى تدهور الصناعة بسبب هذا النظام، بعد أن كان دور شيخ الحرفة إجابة مطالب العمال والمهرة والإشراف عليهم، أصبح جمع المال للحكومة؛ مما كان له أثره السيء وانعكاسه على عدم الإنتاج والارتقاء بالخدمة.

ثالثًا: الحرف في عهد محمد عليّ

نستطيع أن نحدد ملامح الحرف في عهد محمد علي بما كان شائعًا خاصة المنظمات الدينية التي ارتبطت بالعقيدة الدينية التي كان لها أثرها في وجدان المجتمع المصري، ومن أبرزها الدراويش والسقاءون، وبائعو العرقسوس، والشَّرْبَات، بخلاف الحرف الأخرى التي سنلقي عليها الضوء فيما بعد.

١- الدراويش:

تعتبر المنظمات الحرفية والمنظمات الدينية (الطرق الصوفية) من أهم السمات التي تميز أحياء القاهرة، بل وتكسبه ميزة من الرباط القائم بين هذه الطوائف أو المنظمات، وكان ذلك ملحوظًا عند الأزمات بطريقة واضحة، وكان يبدو ذلك في حي الحسينية في القرن الثامن عشر، والترابط بين طائفة الجزارين والطريقة البيومية، وبرز قادة الحركات الشعبية من هؤلاء الجزارين.

وقد ارتبط هذا الحي بالطرق الصوفية، فكان «علي البيومي»، وهو أحد أتباع الطريقة الخلوتية، وواحد من أتباع الطريقة الأحمدية، قد أصبح معبودًا حقيقيًا في هذا الحي الذي سكنه منذ زمن ليس ببعيد.

---

(١) هاملتون جب، هارولد بوون: المجتمع الإسلامي والغرب، جـ٢ ص١١٥ .

وتعد وفاة «عليّ البيـومي» نقطة البدء في تكوين طريقة صوفيـة تحمل اسمه ولقبه الموجودين على مسجده ومـقبرته، إذ كان له نشاط ديني هائل، ترجم بعد ذلك إلى مولد كبير يتردد عليـه الرواد من كل مكان، وانتشرت الطريقة الجديدة بصورة سريعة بين جـزاري الحسينية، يشهد بذلك ما قام به الشـيخ أحمد سالم الجزار من أعمـال، حيث نفوذه الكبير على أهـل الحي أثناء الأزمات التي شارك فيها هذا الشيخ[1] .

وقد لعبت الطريقـة «الخلوتية» التي ظهر فيها «عليّ البـيومي» دورًا هامًا في الحياة الروحية لأهالي الحي، وكان «السيـد عليّ بن موسى» شخصية ذات نفوذ، وكان مدرسًا بالمشهد الحسيني، كما كـان من شخصيات الحسينية المريدين، وبعد وفاته أصـبح أخوه «بدر الدين» زعـيمًـا للحي الذي قاد حـركتـه عام ١٢٠٣هـ (١٧٨٩م)[2] .

وقد شهدت منطقة الرملية نشاطًا دينيًا هائلاً حينما تم إنشاء الطريقة الرفاعية والتي تمثلت في مقـام الشيخ «سيدي أحمـد الرفاعي»، حيث اشتـهر مولده في عام ١١٤٠هـ (١٧٢٨هـ)، والذي شهـد مئات، بل آلاف الرواد المريدين، ومن شدة هذا الزحام مات سبعة عشر شخصًا تحت الأقدام[3] .

ومن هنا يرجع تسمية «الدراويش» إلى الطبقة الرفاعـية والبيومية؛ لأن طبقة الدراويش - في الغالب- من هاتين الطبقتين، وكـانوا يعفون من ضريبة الدخل التي كانت تسمى القدرة، وكان معظم هؤلاء الدراويش الذين يلقبون بالحمالين، يحملون إبريقًا رصـاصي اللون، مليئًا بالماء الذي يُبرد بواسـطة الإبريق، وأحيانًا يكون الماء مزهرًا بماء الورد، ويقومون بسقـيا الناس مقابل قليل من المال، وكانوا لا يأخذون شيئًا من الفقراء.

---

(١) علي لطفي: التطور الاقتصادي في مصر وأوربا، القاهرة، ١٩٦٦، ص٢١٩ .

(٢) محمد فهمي لهيطة: تاريخ مصر الاقتصادي في العصور الوسطى الحديثة، القاهرة، ١٩٤٢، ص٣٠ .

(٣) صلاح أحمد هريدي: الحرف والصناعات في مصر، ص ٥٨.

وكان كثير من هؤلاء «الحمالين والسقايين» يتواجدون دائمًا في زحام الاحتفالات الدينية وموالد الأولياء، ويضع الزوار النقود في صندوق نذور «الولي»، ذلك الصندوق المجاور للضريح، وكانوا يوزعون الماء في فنجان على الزوار صدقة بلا مقابل من أجل «الولي»، وكان السقاة أو الحمالون يهتفون بعبارات أنشودية مختصرة لدعوة الظمأى وترغيبهم في شرب الماء الذي يقدم مطهرًا أو شافيًا باسم الله[1] .

٢- السقاءون:

أنشئت طوائف السقائين في نهاية القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي، حيث كانت القاهرة تعتمد اعتمادًا كليًا على مياه النيل، وكانت مياه الخليج المصري لا تأتي إليه عقب الفيضان ولمدة ثلاثة أشهر، وقد برز دور السقائين في تلك الفترة لتزويد الناس بالمياه العذبة النقية، وكان السقاءون يحصلون على مكافآت مالية من عملائهم الدائمين.

وانقسمت طوائف السقائين إلى عدة طوائف، منها طائفة حاملي المياه على ظهور الحمير، وطائفة لحي باب اللوق، وطائفة لحارة السقائين، وطائفة لحاملي المياه على ظهور الجمال، ثم طائفة في قناطر السباع[2] ، وكان هناك أيضًا مجموعة لحمل المياه على ظهورهم «حمالو القرب»[3] ، وكانوا يمرون بالشوارع وينادون بلهجة تميزهم عن غيرهم «يارب عوض عليّ».

وقد صدرت تعليمات لأصحاب هذه المهنة بالبعد عن الشواطئ الراكدة والأماكن القريبة من المراحيض وأماكن نزول الحيوانات، والتنبيه عليهم بالحرص

---

(١) أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ص ٢٧٦-٢٧٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٧-٢٧٨ .

(٣) كانت هذه الحرفة تسمى «شراب السقا» وكانت عبارة عن قربة تصنع في جزء كبير منها من جلد الماعز المدبوغ المحكم جيدًا لعدم تسرب المياه، وفي نهايته صنبور لصب الماء، وكان الماء يُصب في كوب من المعدن، وكان هذا النشاط يغطي أحياء القاهرة جميعها.

الدائم على نظافة الأوعية التي تُملأ بالماء[1] . وكان ينبه الناس لقدوم السقائين بسماع الأجراس المعلقة في حيواناتهم التي تحمل الماء، وأيضًا كان يميز أصحاب هذه المهنة أو الطائفة لبس السروال الأزرق اللون؛ ليكون لائقًا وملائمًا طبيعة أهل الحي، وبطريقة محتشمة، وفي نفس الوقت لافتًا للانتباه.

ولعبت جماعة السقائين دورًا كبيرًا في أحياء القاهرة وشوارعها، وبرز نشاطها الاجتماعي بفضل ذهابهم ودخولهم مساكن الأهالي، الأمر الذي أدى إلى نقل الأخبار ونشرها والمساهمة مباشرة في الحياة اليومية، وأيضًا لعب السقاءون دورًا في نقل رسائل الغرام، حيث كانوا وسطاء في المغامرات العاطفية، وكونوا ثروات كبيرة من هذا الأمر[2] .

وكما كان للسقائين دور في النشاط الاجتماعي، كان لهم أيضًا دور في الأزمات السياسية، ففي عام ١١٢٢هـ (١٧١١م) وأثناء المعارك التي دارت بين العربان والإنكشارية، تصارع الفريقان على الاستيلاء على حمير وجمال السقائين، الأمر الذي عَرَّضَ الأمن للاضطراب، كذلك لجأ الفرنسيون أثناء حملتهم على سوريا إلى مثل ذلك الفعل، ولجأ محمد عليّ عام ١٢٢٠هـ (١٨٠٦م) إلى إجراءات تشبه ذلك.

وكانت الصبغة الدينية تبدو على جماعة السقائين، حيث كانوا يقدمون الماء في جنازات الموتى، وكانوا في فترة الحج يتوافدون إلى جمهور الحجاج؛ ليؤمّنوهم من العطش، وكانوا يجمعون بين هذه المهنة وبين النشاط الديني بشكل يجعل الاثنين معًا شيئًا واحدًا. وقد ظل بعض السقائين يمارسون أعمالهم إلى وقت قريب رغم دخول شبكات المياه التي حلت محل نظام السقائين.

٣- بائعو العرقسوس والشّربات:

يتميز أصحاب هذه الحرفة عن غيرهم بشكلهم اللافت للنظر بحملهم جرة

---

(1) E. Lane: An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, pp. 17-18.

(٢) أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ص٥٠ .

(بلاصًا)[1] من الفخار على أكتافهم مملوءة بشراب العرقسوس، وفي نهاية الجرة أو البلاص بعض ألياف النخيل، وكان البائع يحمل بين أصبعيه طبقان من النحاس الثقيل ليستطيع الطرق بهما لتنبيه الناس بوجوده، بأصوات مميزة، فعندما يسمع هذا الصوت يعرف أنه بائع العرقسوس[2] . أما بائعو الشَّرْبَات فكانوا يحملون صينية نحاسية بها أكواب مختلفة بها بلح مبلل، أو التين أو السحلب أو نشا القمح (البليلة)، وكانت تحمل بنفس الطريقة السابقة، وكان البائع يمسك بيده اليسرى شريط معدني وسلسلة حديدية تساعده على حمل الجرة.

٤- صائدو الأسماك:

تعرف هذه الحرفة في كل مكان وموجودة حتى الآن، ولا يخلو مكان به بحار في العالم إلا وبه أصحاب هذه الحرفة، ولكن المصايد المنظمة لهذه الحرفة لم تكن موجودة إلا في بحيرتي البرلس والمنزلة في الدلتا، وكان حقوق الصيد في البرلس معطاة على شكل التزام مقابل مبلغ من المال، ويقوم الصيادون بممارسة مهامهم بالصيد وإعداد البطارخ للبيع، أما الأسماك التي لا تباع فإنها تملح بناء على موافقة الباشا[3] . كما يتم تمليح الأسماك في دمياط، ومنها ترسل إلى القاهرة، وقد أُخذت حرفة تجفيف الأسماء من الأوروبيين الذين كانوا يستعينون بالأهالي ويعلمونهم هذه الحرفة[4] .

٥- الجزارون:

هم قوم ذوو بنية قوية، طباعهم حادة، تربطهم تقاليد طائفية قوية، وكان الجزارون قليلي العدد في مصر، ويرجع ذلك إلى عدم إقبال الشعب المصري

---

(١) معروف عند جميع الفلاحين وبعض أهل المدن، وكان الفلاحون يخزنون به الجبن القريش لمدة لا تقل عن عام ليصبح الجبن (قديمًا) بلون يميل إلى البُني، ويكون شديد الملوحة، ولكن له طعم شهي، وأيضًا استخدم (البلاص) أهل الصعيد لتخزين عسل القصب وبيعه في الأسواق، ويسمى (جرة أو بلاصًا أو زلعة). الباحث.

(٢) أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ص٩٥ .

(٣) ج.دي شابرول: دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، الدولة الحديثة من كتاب «وصف مصر»، ترجمة: زهير الشايب، القاهرة، ١٩٧٦، ص٢٩٣ .

(٤) أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ص٢٧٥ .

على مهنة الجزارة، وهذه الطائفة القوية برز منهم قادة الحركات الشعبية في حي الحسينية، وكانت تربطهم علاقة قوية بالطرق الصوفية.

وقد بلغ عدد الجزارين في القاهرة في القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي نحو ٢٢٠٠ جزار موزعين على ثلاث طوائف، مائتان منهم يشكلون طائفة سلخانات باب الفتوح فقط، يضاف إلى ذلك رابطة لجزارة الضأن[١].

٦- صانعو الذهب:

احتكر المسيحيون السوريون والأرمن هذه الحرفة في البلاد، وكان لليهود عمل خاص بمصر بصفتهم سماسرة للمعادن النفيسة، وكان مقرهم خان أبي طاقية، وكانوا يعملون وفقًا لرغبة الزبون[٢]. والواقع أن درجة إتقان الصياغة بمصر لم تكن بإتقان الصناعة الأوربية التي وصلت قمة إتقانها. أما الأرمن فكان لهم معرفة هائلة في تركيب الأحجار الكريمة، وكثر تواجد صانعو الكهرمان والعقود والمسابح في حي مرجوش[٣].

٧- النحاسون[٤]:

احتفظت صناعة النحاس بمكانة فريدة إلى جانب صناعة الصاغة، وفي أيام الأزمات المالية كانت رقابة السلطة تتجه نحو النحاسين والصياغ، وكانت لصناعة النحاس مكانة عظيمة بين صناعات المعادن الأخرى، وبالرغم من أن النحاسين فقدوا جزءًا من شهرتهم السابقة، إلا أنهم كانوا ينتجون عددًا كبيرًا من الأواني المستعملة وغيرها، وكان القادة يعتمدون عليهم تمامًا، وكانت هذه الفئة

---

(١) دفتر ٤٤ معية تركي، مكاتبة رقم ٣٠ بتاريخ ٢٢ ربيع الأول ١٩٥٢. أمر كريم إلى إسماعيل أغا حاكم البرلس.

(٢) أمين سامي باشا، تقويم النيل وعصر محمد علي، جـ٢، القاهرة، ١٩٢٨، ص ٣٨٣.

(٣) صلاح أحمد هريدي: الحرف والصناعات في عهد محمد عليّ، نقلاً عن أندريه ريمون، ص ٦٦.

(٤) النحّاس: هو صانع الأدوات النحاسية، وكان يقال له: الصفّار، ويتصل بصناعة النحاس أيضًا صناعة أخرى أكثر تخصصًا مثل التكفيف والنقش (انظر: حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج٣، ص١٢٧٥).

أكثر يسراً من غيرها من الفئات بالقاهرة، وتركزت في قلب القاهرة رغم الضوضاء الهائلة الناتج عن هذه الحرفة[1] .

وقد اتخذ خان الخليلي مركزاً كبيراً لبيع الأدوات النحاسية الناتجة عن هذه الحرفة، سواء كانت صناعة محلية أو مستوردة من القسطنطينية، وكان النحاسون كلهم موجودين في شارع بين القصرين (شارع النحاسين سابقًا) بين الأشرفية والركن المخلق.

٨- الصرماتية والسروجية (الإسكافي)[2] :

كان يعمل بهذه الحرفة المسلمون والذميون معًا، ويقوم الصناع بصناعة كل ما يلزم من الأحذية، وكان الحرفيون في حي البرادعية يقومون بصناعة السروج ولوازم الخيل، وبرادع الحمير والبغال وغيرها[3] .

٩- صانعو السلاح:

الحي المعروف بالقاهرة باسم «سوق السلاح» هو الذي سمي باسم أصحاب هذه الحرفة، فمنهم من تخصص في صناعة الأسلحة النارية[4] ، كما اختص آخرون تخصصوا بصناعة الأسلحة البيضاء كالسيوف والسكاكين، وكما كانوا يقومون بالصناعة والإتقان لهذه الحرفة، فإنهم أيضًا كانوا يقومون بإصلاحها وصيانتها[5] .

١٠- النحاتون:

النحات: هو من فئة الفنانين والصنّاع، وهو الذي ينحت أو يحفر في

---

(١) هاملتون جب، هارولد بورن: المجتمع الإسلامي والغرب، جـ٢ ص١٤٥ .

(٢) الإسكافي: هو صانع النعال، ويقال أيضًا: الإسكاف والجمع أساكفة، وكان الأساكفة يربون الماشية لاستخدام جلدها في صنع النعال، وأنه قد فرض على الماشية في بعض الأوقات مكوس أو ضرائب، ثم ألغيت بعد ذلك. لمزيد من المعلومات انظر: (حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج١ ص٨٧) .

(٣) هاملتون جب، هارولد بورن: المجتمع الإسلامي والغرب، ص١٣٨ .

(٤) صلاح أحمد هريدي: الحرف والصناعات في عهد محمد عليّ، ص ٧١ .

(٥) كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، جـ٢، ص٤٧٣ .

الحجر، ويشكل زخارف ورسومات وكتابات وأشكالاً بواسطة الحفر والنحت، وربما دخل النحت ضمن أعمال البناء في كثير من الأحيان، ذلك أن للنحات دوره في البناء؛ إذ إنه هو الذي كان يقوم بعمل الزخارف الحجرية وحفر النقوش والكتابات وتشكيل المقرنصات، ويساعده في عمله النقار، وهو الذي ينقر الحجر لتسويته وتشكيله[1] .

رابعًا: بعض الحرف المتدنية

يقصد بالحرف المتدنية تلك الحرف التي يمارسها السَّوَقَة الذين لا حرفة لهم، وينظر إليهم المجتمع نظرة متدنية؛ لأن عملهم أقرب ما يكون إلى التسول منه إلى الاحتراف، ومن هذه الحرف:

١ - المهرجون:

وهم الذين يؤدون أعمالهم في الأعياد والمناسبات والأفراح، ويقدمون ألعابًا هزلية مضحكة، وهؤلاء يؤدون أعمالهم غالبًا في مقدمة حفلات الزفاف والطهور في بيوت الأثرياء، وأيضًا في الأماكن العامة في القاهرة، وهي أعمال يغلب عليها طابع المزاح والتهريج؛ لينالوا التصفيق[2] . وكان يقوم بهذه الألعاب المسلية الرجال والأولاد فقط، ومنهم من يقوم بتمثيل دور المرأة في زي الأنثى، ويقومون بعمل التمثيليات أمام الباشا، ويبرزون فيها مساوئ جمع الضرائب بالطرق غير اللائقة.

وكان يقوم بهذا العمل فريق من المسلمين والمسيحيين واليهود، ويؤدون أدوارهم في فناء كبير تقليدًا للمسرح[3] ، وقد أخذ الأتراك مسرح العرائس «الأراجوز» الذي كان يتكلم بالتركية بطريقة شعبية، وكانت تعرض ليلاً فقط، وكان هذا العرض البسيط ينال إقبالاً كبيراً.

---

(١) عبدالرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٤، ص٢٨٨ .

(٢) المصدر السابق، جـ١، ص٢٥ .

(٣) حسن الباشا: الفنون الإسلامية، جـ٣، ص١٢٧٥ .

٢- القرداتي:

هذه التسمية تنسب لكل صاحب قرد، وفيها يلبس القرد ملابس بطريقة خيالية كالعروس أو امرأة محجبة، ويضعه صاحبه على الحمار، ويستعرضه أمام حشد من المشاهدين الذين يلتفون حلوهم، وتهدف هذه الطريقة إلى تسلية الطبقات الدُّنيا بتأدية ألعاب القرد والحمار والكلب والجِدي، ويقوم القرداتي بدق الدف أمام القرد ليجعله يرقص، ويؤدي الأفعال المضحكة، الحركات المذهلة، ويطلب من الحمار أن يختار أجمل فتاة في حلقة المشاهدين، ويضع أنفه في وجهها، كما يأمر الكلب بأن يقلد حركات مذهلة، حيث يقوم الكلب بالزحف على بطنه، أما القرد فكان يقف على قطعة صغيرة من الخشب على شكل مكعب أو صندوق وتكون أقدامه الأربعة متقاربة، وترفع هذه القطعة والقرد ما يزال واقفًا عليها، وترص أكثر من قطعة أسفل هذه، حتى يرتفع القرد بطريقة مضحكة ولافتة فوق قطع الخشب المتراصة، وكل هذه الألعاب مقابل جمع المال من المتفرجين وكل حسب ما يستطيع[١] .

٣- العرَّافات:

العرَّافَات جمع عَرَّافة، والعَرَّافة: هي التي تستخدم عددًا من الوَدَع وقليلاً من الزجاج الملون أو المال لمعرفة البخت (الحظ)، وكانت تمارس هذه الحرفة في مصر قبيلة من الغجر، وهناك عدة قبائل صغيرة من هذه «الغجر» تدعى لنفسها أنها من نسل البرامكة مثل الغزاوي، ولكن من نوع مختلف، وكثير من نسائهم عَرَّافات[٢] . والعرَّافة كانت ترتدي الملابس الشبيهة بملابس النساء من الطبقات الدُّنيا «الثوب الأسمر والطرحة» وتكون مكشوفة الوجه، وتحمل عادة قربة من جلد الغزال تحتوي على المواد الخاصة بحرفتها.

وكانت العرَّافة تستخدم الأشياء المذكورة عند ممارسة العمل بوضع وإلقاء

---

(1) E. lane: Op. cit., pp. 100-102.

(٢) ج. دي شابرول: دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، ص١٥٧ .

هذه الأشياء على الأرض، وإيهام من يرغب معرفة أسراره أنها تعرف ماضيه ومستقبله، وكانت العرَّافة تحكي - كذبًا وإيهامًا - ما يحدث وما يدور سواء من خير أو شر، وكانت للعرافة عبارات وألفاظ تميزها في الشوارع وتقول: «نفتح البخت ونبين الحاضر والغائب»، وأحيانًا تقول: «أبين زين»، ومازلن يمارسن هذه الحرفة في بعض مدن وقرى مصر حتى الآن، ويزيد وجودهن في أماكن التجمعات والأسواق والشواطئ.

٤- النَدَّابَات:

لا تزال هذه المهنة أو الحرفة موجودة حتى الآن، وتوجد الندابات في حالات الموت وقبل مراسيم الدفن، وهن نساء مدربات منذ زمن طويل على العويل وصرخات الحزن، وهذه عادات كاذبة لا يقبلها مُسْلم فَطِن على الإطلاق، وكانت النَدَّابَات تؤجر في هذه الحالات، وخاصة في الريف، وتقوم الندابات بتأبين المتوفى في الحجرة التي يوجد فيها جثمانه، وتقوم إحداهن بنطق ألفاظ تعبر عن الأحزان لترد عليها الأخريات بصيحات حزينة مفزعة[1] ، وهناك بعض الندبات يقمن بلطم وجوههن، وأيضًا وضع الطين فوق رءوسهن لبيان شدة الحزن، وهذه العادات تكاد تكون انقرضت إلا في بعض القرى النائية، فربما تكون موجودة حتى الآن.

٥- الرقص البلد والشعبي:

قبيلة «الغوازي» هي أكثرة شهرة، وقد اشتهرت مصر بالراقصات، وكان يطلق على الأنثى «غارية»، أما الرجل فكان يطلق عليه «غازٍ»، والجمع «غوازٍ»، وكانت الغوازي يؤدون الرقص في الطريق العام لمتعة الجماهير، وكان رقصهن عشوائيًا، أما الذي كان يميزهن فهو الاهتزازات السريعة من أعلى الفخذين، كما كانوا يستخدمون «الصاجات» للمساعدة على انفعالات أكثر حرارة، وكانت ملابسهن في العادة أشبه بملابس الطبقة الوسطى من الحريم، وكان يصاحبهن

---

(1) E. lane: Op. cit., pp. 99.

فـريق من الموسيـقيين من قـبـيلتهن لا تزيد عن الـربابة أو الكمنجة، والتـار، والمزمار، أما التار فكانت تمسك به عادة امرأة عجوز[١] .

كمـا كُن يَقُمن بالرقص في صحن الدار (الفناء أو الحـوش)، أو في الشارع أمام الدار، وكن أحيانًا يقمن بالرقص في بيوت الرجـال غير المحترمين، ويقمن بشرب الكثير من المشروبات الروحية التي تـذهب العقل لمساعدتهن على قيامهن بالرقص لإمتـاع هذا النوع من الرجال، ويتقـاضين مبالغ كبـيرة، وادعى هؤلاء نسبة أنفـسهن إلى «البرامكة»، ويتفاخرون بأنـهن من هذه السلالة التي تعرضت لنزوة من طغيان هارون الرشيد[٢] .

وكانت الغـوازي يمارسن مهنة الدعـارة، وكن يَسكن في الأحيـاء الشعبـية المخصصة لذلـك، وتتكون مساكنهن من أكواخ صغيـرة أو خيام؛ لأنهن يرحلن كـثيـرًا من بلد إلى بلد، والقليل منهن كن يقـمن في بيوت كـبيـرة. وما يميـز الغوازي عن باقي الطبقات الأخرى هو الامـتناع عن الزواج من غير القبيلة[٣] . ولكن في بعض الأحيـان تأخذ الغازية على نفـسها عـهدًا بالتوبة، فتـتزوج من عربي محترم، ولا يعتبر ارتباط العربي بها عارًا.

خامسًا: مراحل الصناعات في مصر في عهد محمد عليّ

لقـد مر التـصنيع في مـصـر بثلاث مـراحل؛ **المرحلة الأولى:** تقع بين عام ١٢٣١-١٢٣٣هـ (١٨١٦-١٨١٨م) وفيها جنى والي مصر نتائج الاحتكار الذي بدأه عـام ١٢٣١هـ (١٨١٦م)، وحافظ الإنتـاج الصناعي على طابعه الحـرفي، وقد استـمر نفس الحرفيين بمهنهم البـدائية في عملهم، ولكن محـمد عليّ كان يزودهم بالمواد الأولية التي يعيدونها إليه بعد تصنيعها مقابل أجور تدفع لهم[٤]،

(1) E. lane: Op. cit., pp. 91.

(٢) ج. دي شابرول: دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، ص١٧٩ .

(3) E. lane: Op. cit., pp. 86-89.

(4) Ibid.

وقد لاحظ عبدالرحمن الجبرتي المؤرخ المعروف أن هذا النظام المفتقر لا يفي بأغراضه في التحول إلى الصناعة الكبيرة، حيث يقول: «أقام محمد عليّ فابريقات للقطن والحرير وغير ذلك من الفابريقات، وبما أن الأنوال الصغيرة توقفت عن العمل، فإن محمد عليّ عيّن أصحابها في فابريقاته».

والمرحلة الثانية ١٢٣٣-١٢٤٥هـ (١٨١٨-١٨٣٠م): فهي مرحلة الصناعة الكبرى، وبخاصة صناعة النسيج ومصانع التسليح[١]. وكان أسلوب القسوة الذي أمر الوالي باتباعه في معاملة الحرفيين التقليديين يتناقض تناقضًا صارخًا مع ما أولاه من رعاية واهتمام بالأيدي العاملة في الصناعات الكبيرة التي تتولاها الدولة[٢]، حينئذ تكونت الصناعات الكبيرة: مصانع الأسلحة والمدافع بالقلعة، التي بلغت أوجها عام ١٢٤٣هـ (١٨٢٨م)، ومصنع المدافع بالترسانة، ومصنع البنادق في الحوض المرصود ١٢٣٦هـ (١٨٢١م)، ومصانع البارود الخمسة التي بلغ إنتاجها (١٥,٨٧٤) قنطار عام ١٢٤٨هـ (١٨٣٣م)، والترسانة البحرية بالإسكندرية عام ١٢٤٤هـ (١٨٢٩م)، والتي تطورت على يد رئيس عمالها العبقري «الحاج عمر»[٣].

وفي مجال الصناعات المدنية تم إنشاء ثلاثين مصنعًا لغزل القطن ونسجه في الوجه البحري والوجه القبلي، وكانت مصانع القاهرة تزود مصانع الإقليم بالآلات والعدد وقطع الغيار والفنيين لتجديد وصيانة المنشآت وتدريب المهنيين[٤]. وأيضًا مصانع نسج الصوف في بولاق ودمنهور وفوة، وصنع للحرير في الخرنفش ١٢٣١هـ (١٨١٦م)، ومصانع عديدة للكتان ومصانع للسكر والزجاج والورق.

---

(1) E. lane: Op. cit., pp. 89-91.

(2) Mpustafa Fahmy: La revolution de l'imdustrie en Egypte et ses consequences socials ai xix siele (1800-1850), E. J. Brill, Leiden, 1954, 14-5.

(٣) أنور عبد الملك: نهضة مصر «تكون الفكر والأيديولوجية في نهضة مصر الوطنية (١٨٠٥-١٨٩٢م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٣٠.

(٤) نفس المرجع السابق، ص٣١.

أما المرحلة الثالثة والتي بدأت عام ١١٤٥هـ (١٨٣٠م)، فهي مرحلة انهيار الاقتصاد المصري، والتي على أثرها لجأ محمد علي إلى أسلوب الاحتكار الذي سمح له بتمويل الصناعات الجديدة، وإلى الضرائب والقروض الإجبارية، وعن السياسية الاقتصادية التي لجأ إليها محمد عليّ وأهميتها في نهضة مصر، يقول: «إن هدفنا ليس تحقيق الأرباح، وإنما صبغ الشعب بالصبغة الصناعية»[١] . . إن عملية التأريخ لمصر الحديثة بدأت تدرك ضخامة الأعمال التي قام بها مؤسس الأسرة التي ألغي حكمها في غرة ذي القعدة ١٣٧١هـ (٢٣ يوليو ١٩٥٢م)[٢] .

***

(١) أحمد الحتة: دراسات تاريخية اقتصادية في عهد محمد عليّ، مجلة كلية آداب القاهرة، العدد٣، ١٩٣٥، ص١١٣-١٦٦ .

(2) A. A. Al-Gritly: The structure of modern industry in Egypte, Ph.D., London, in L'Egypte contemporaine, nov. - dec. 1974, no. 241-2, Le Carie, 1948, 363 .

• خلاصة القول •

إن هذا البحث يحاول توضيح الصورة التاريخية لأصحاب الحرف الذين مارسوا أعمالهم الحرفية، وقد تجمعوا في أنساق اجتماعية، كما كان لها خصوصية في الصناعات الصغيرة والحرف وعملة تنظيمها بين هذه الطوائف، وأيضًا تحديد العلاقة بين الصوفية والحرفيين، كما عمل محمد عليّ على أن يكون الحرفي في خدمته وتحت توجيهه، وحافظت هذه التنظيمات على استقرارها منذ عصر المماليك، وامتدت جذورها في العالم الإسلامي إلى ما قبل تأسيس الدولة العثمانية.

والواقع أننا نجد أن من أهم مزايا هذا النظام الطائفي الترابط والتآخي والتعاون بين أفراد المهنة الواحدة، وأيضًا منع المنافسة غير الشريفة بين الأفراد، ودقة الصناعة وإتقان فنونها، كما تمثلت المنظمات الدينية التي برز دورها بين أرباب الحرف الهامة، ومن أبرزها: الدراويش، والسقاءون، وبائعو العرقسوس، وصيد الأسماك، والجزارون... وغيرها، والتي ارتبطت بالعقيدة التي كان لها أثرها في وجدان المجتمع المصري.

وهنا نجد الترابط بين الحرفيين والصوفيين، ويتضح ذلك في العلاقة التي كانت بين طوائف الطريقة البيومية، وطائفة الجزارين بحي الحسينية بالقاهرة، وبرز من هؤلاء الجزارين قادة الحركات الشعبية التي كانت بذلك الحي في نهاية القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي، كما اندمج الشيوخ والجزارون في علاقات اجتماعية ومصاهرة.

حقيقة الأمر أن أصحاب هذه الحرف لعبوا دورًا اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا في البلاد، فكانت لهم مكانتهم، كما كان لكل حرفة قيمة تميزها عن الأخرى، كما ارتبطت الخدمات بهذا النظام الذي يمثل التكامل بين النظام الحرفي والصناعي.

***

المصادر والمراجع

(١) **أحمد الحتة:** دراسات تاريخية اقتصادية في عصر محمد عليّ، مجلة كلية آداب القاهرة، العدد ٣، ١٩٣٥م.

(٢) **إلياس الأيوبي:** تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا، جـ١ ، دار الكتب المصرية، ١٩٢٣م.

(٣) **إميل فهمي حنا شنودة:** تاريخ التعليم الصناعي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

(٤) **أمين سامي باشا:** تقويم النيل وعصر محمد عليّ، جـ٢، القاهرة، ١٩٢٨م.

(٥) **أمين عز الدين:** تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى عام ١٩١٩م.

(٦) **أندريه ريمون:** فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ترجمة: زهير الشايب، القاهرة، ١٨٧٤م.

(٧) **أنور عبدالملك:** نهضة مصر «تكون الفكر والأيديولوجية في نهضة مصر الوطنية (١٨٠٥-١٨٩٢م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٨) **ج. دي شابرول:** دراسات في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، الدولة الحديثة من كتاب «وصف مصر»، ترجمة: زهير الشايب، القاهرة، ١٩٧٦م.

(٩) **جمال بدوي:** محمد عليّ وأولاده: بناة مصر الحديثة، مهرجان القاهرة للجميع، القاهرة، ١٩٩٩م.

(١٠) **جي فارجيت:** محمد عليّ مؤسس مصر الحديثة، ترجمة: محمد رفعت عداد، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣م .

(١١) **حسن الباشا:** الفنون الإسلامية، جـ٣ .

(١٢) **حسن خلاف:** التجديد في الاقتصاد المصري الحديث، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٢، ط١ .

(١٣) **حسين عليوة:** دراسة لبعض الصناع والفنانين بمصر في عهد المماليك، دورية كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد الأول، مايو ١٩٧٩م.

(١٥) **دفتر ٤٤ معية تركي،** مكاتبة رقم ٣٠ بتاريخ ٢٢ ربيع الأول ١٩٥٢م. أمر كريم إلى إسماعيل أغا حاكم البرلس.

(١٦) **راشد البراوي، محمد حمزة عليش وآخرون:** التطور الاقتصادي في مصر في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٤٨م .

(١٧) **رءوف عباس حامد:** الحركة العمالية في مصر ١٨٩٩-١٩٥٢م، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م .

(١٨) **سعيد عبد الفتاح عاشور:** المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٢م .

(١٩) **صلاح أحمد هريدي:** الحرف والصناعات في عهد محمد علي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

(٢٠) **عاصم الدسوقي:** التاريخ الاقتصادي، القاهرة، ١٩٧٦م .

(٢١) **عبد الرحمن الجبرتي:** عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٤ .

(٢٢) **عبد الرحمن الرافعي:** تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، الطبعة الخامسة، ١٩٨١م، دار المعارف بمصر، ص٢٠٢-٢٠٥ .

(٢٣) **عبدالعزيز نوار سليمان:** تاريخ مصر الاجتماعي منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، ب.ت.

(٢٤) **عبد المنعم فوزي:** مذكرات في تطور مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث.

(٢٥) **عفاف لطفي السيد مارسو:** مصر في عهد محمد عليّ، ترجمة عبدالسميع عمر زين الدين، مراجعة: السيد أمين شلبي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤م .

(٢٦) **علي لطفي:** التطور الاقتصادي في مصر وأوربا، القاهرة، ١٩٦٦م.

(٢٧) **عيسى إبراهيم:** جغرافية مصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م.

(٢٨) **كلوت بك:** لمحة عامة إلى مصر، جـ٢ .

(٢٩) **محمد إبراهيم حسن:** جغرافية مصر العربيـة وحوض البحر الأحمر، مركز الإسكندرية للكتاب، ١٩٩٨م.

(٣٠) **محمد فريد فتحي:** جغرافية مصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط٢، ٢٠٠٢م.

(٣١) **محمد فهمي لهيطة:** تاريخ مصر الاقتصـادي في العصور الوسطى الحديثة، القاهرة، ١٩٤٢م .

(٣٢) **مصطفى بركات:** الألقاب والوظائف العثمانيـة، دار غريب للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م .

(٣٣) **هاملتون جب، هارولد بوون:** المجتـمع الإسلامي والغـرب، ترجمة: أحـمد مصطفى عبدالرحيم، مصطفى الحسيني، جـ١، دار المعارف، ١٩٧١م.

(34) **A. A. Al-Gritly:** The structure of modern industry in Egypt, Ph.D., London, in L'Egypte contemporaine, nov. - dec. 1974, no. 241-2, Le Carie, 1948 .

(35) **Baer:** Social Change in Egypt, 1800- 1914, In: P. M. Hott, of Policical and Social Change in Modern Egypt.

(36) **E. Lane:** An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians.

(37) **Mpustafa Fahmy:** La revolution de l'imdustrie en Egypte et ses consequences socials ai xix siele (1800-1850), E. J. Brill, Leiden, 1954.

(38) **Stanford J. Shaw:** The financial and administrtive organization and development of Ottoman Egypt (1518-1798), 1958 .